جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

صورة الآخر
في شعر ابن حربون الأندلسي

الدكتور
سيد أحمد عبد الرحمن محمد أبو عليو
مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية بجرجا

العدد التاسع عشر
للعام ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

الجزء الرابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٥م
الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم أجمعين.

وبعد:

فإن الشعر الأندلسي كان ولا يزال ينبوعاً ثرًّا ينهل منه الباحثون؛ لغزارة مادته، وتعدد فنونه، وثرائه من الوجهتين الموضوعية والفنية .

وقد خلد لنا التاريخ دواوين عديدة لشعراء من العصر الأندلسي مازال صيتهم ذائعاً في كافة الدراسات الأدبية والتاريخية، والشاعر الأندلسي أبو عمر أحمد بن حربون – فيما أعلم – لم يأخذ حظه من البحث والدراسة بما يتفق مع نتاجه وفنه، ومن هنا كانت الرغبة في إلقاء الضوء عليه قبل أن تلتهمه عناكب النسيان، كما لم تحظ صورة الآخر في الشعر العربي بدراسات وافية على الرغم من أهميتها، فكانت الرغبة – أيضاً – في الوقوف على طبيعة العلاقة بين الشاعر والآخر، خاصة وأن الدراسات الحديثة أخذت على عاتقها في الآونة الأخيرة الاهتمام بدراسة (الآخر)؛ لاتصاله بالذات الإنسانية وعلاقتها بمحيطها.

لذلك جاءت هذه الدراسة، لتقف على أبعاد تلك العلاقة من خلال التعايش مع شاعر عاش في مرحلة مهمة من تاريخ الأدب العربي وهو العصر الأندلسي.

وقد تجلي من خلال شعر ابن حربون تصويره للآخر بوضوح، وذلك على اختلاف مستويات هذا الآخر، فنرى في شعره صورة الآخر الحاكم، والآخر الممدوح، والآخر المهجو، وقد جعلت عنوان البحث: " **صورة الآخر فى شعر ابن حربون الأندلسي** "وكانت الدراسة وصفية تحليلية استقرائية وذلك من خلال استعراض النصوص وقراءتها وفهمها واستخلاص النتائج منها .

وقد جاء البحث في: مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث تعقبها الخاتمة وفهرس المصادر والمراجع .

أما المقدمة: فتناولت فيها أسباب اختيار البحث والخطة التي اتبعتها والمنهج .

وأما التمهيد فيشتمل على:

أولاً: مفهوم الآخر .

ثانياً: نبذة عن المجتمع الأندلسي وعصر الموحدين .

المبحث الأول: التعريف بالشاعر أحمد بن حربون الأندلسي .

المبحث الثاني: تجليات صورة الآخر في شعر ابن حربون الأندلسي، ويشتمل على:

أولاً: الآخر الحاكم .

ثانياً: الآخر الممدوح .

ثالثاً: الآخر المهجو .

المبحث الثالث: أثر الآخر في تكوين البناء الفني لشعر ابن حربون الأندلسي، ويشتمل على:

أولاً: المعجم الشعري .

ثانياً: المعاني والأفكار .

ثالثاً: الخيال والتصوير .

رابعاً: الأوزان والقوافي .

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث .

وبعد، فهذه دراسة لا أدعي لها الكمال، ولا الاقتراب منه، ولكني أراها خطوات في طريق راشد تضاف إلى جهود الباحثين في ميدان الشعر الأندلسي، علنا من بعد نواصل الخطا ونتبع الهداة، وتكون مسيرتنا باسم الله في الأدب والفكر والحياة .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

د/ سيد أحمد عبد الرحمن أبو عليو
مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بجرجا

تمهيد

أولاً: مفهوم الآخر:

قبل الخوض في دراستي هذه لابد لي من توضيح مفهوم الآخر، حيث لم يحظ هذا المفهوم بدراسات وافية على الرغم من أهميته، وظل هذا المفهوم يكتنفه بعض الغموض،وخاصة أن هذا المفهوم قد أثار جدلاً في نظر الكثيرين، حيث يرى البعض أنه قد يستخدم للدلالة على مجموعة من الخصائص والسمات والمعتقدات والسلوكيات والأفكار التي ننسبها للآخرين،سواء كانوا من الأفراد أو الجماعات(١).

كما تعدد هذا المصطلح في الدراسات العربية، وتسمى بأسماء مختلفة تتقارب في بعض المواضع وتتباعد في مواضع أخر، فهذا المصطلح من المصطلحات الفضفاضة التي تحتاج إلى توضيح، وعند النظر في المعاجم اللغوية لتعريف الآخر نجده عند ابن منظور بمعنى: "غير كقولك: رجل آخر وثوب آخر"، وقوله تعالى: { فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا } (٢) فسره الفراء فقال: معناه آخران من غير دينكم من النصارى واليهود، وحكي بعضهم: أبعد الله الآخر، ويقال: لا مرحباً بالآخر أي بالأبعد (٣) .

وفي المعجم الوسيط نجد تعريف الآخر (٤): أحد الشيئين، ويكون بمعنى "غير " كما في بيت أمرئ القيس، حيث يقول (٥):

إذا قُلتُ هَذا صاحِبٌ قَد رَضيتُهُ ∴ وَقَرَّت بِهِ العَينانِ بُدِّلتُ آخَرا

---

(١) يراجع: الحلم والرمز والأسطورة: د/ شاكر عبد الحميد صـ٢٢٣، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، بيروت، لبنان ١٩٩٨م.

(٢) سورة المائدة، الآية: (١٠٧).

(٣) لسان العرب لابن المنظور، مادة آخر: ١/ ٢٩، ط: دار الجيل، بيروت، لبنان ١٩٨٨م .

(٤) المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون: ١/ ٢٠، ط: دار صادر، بيروت، ط: الأولى .

(٥) ديوان أمرئ القيس صـ٢٢، ط: دار صادر، بيروت .

وفي المعجمات الفلسفية: " اسم خاص للمغاير، يقال للأشخاص والأشياء والأعداد ويطلق على المغاير في الماهية، ويقابله الأنا ... والآخر المقصود هو الغير ليس كما هو في الواقع وإنما كما أعيه أنا"(١) .

والنظرة الفلسفية ترى العلاقة مع الآخر ضرورة من ضرورات الوجود، ويمكن للمرء من خلال الآخر أن يكتشف نفسه ويقف على قدراته؛ إذ يقول سارتر: "الآخرون هم أساساً الأهم فينا كي نتعرف على ذواتنا"(٢).

وفي القرآن الكريم وردت لفظة الآخر في خمس عشرة مناسبة بصيغة المفرد نحو قوله تعالى: { لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً }(٣) ومنه قوله تعالى: { وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ}(٤)، ووردت بصيغة الجمع في اثنتين وعشرين مناسبة(٥) منها قوله تعالى: { إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ }(٦)، وقوله: { ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ }(٧) .

وفي الشعر العربي برزت صورة (الآخر) منذ العصر الجاهلي، ولكنها لم تحظ بالاهتمام الكامل، وإنما جاء الحديث عنها من خلال التطرق إلى علاقة العرب بالأمم الأخرى وكانت مختلفة باختلاف المقام، أي الحالة التي تقتضي ذلك الاتصال، وبالتالي يترجم الشاعر ذلك الاتصال شعراً ...

وأخيراً يمكننا القول: إنه لا يمكن تعريف الآخر بمعزل عن الذات، وحتى يكون المصطلح واضحاً ومحدداً في هذا البحث، فإننا سنأخذه بمعناه العام باعتباره مقابلاً للذات في المعنى الأعم والأشمل، مما يشير إلى أن صورة (الآخر) على هذا

---

(١) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، عبد المنعم الحفني صـ٢٩، ط: مكتبة مدبولي، القاهرة، ط: الثالثة .

(٢) الآخر حسب سارتر، عبدالله عازار، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ٨٦ مارس ١٩٩١م، صـ١٠٦ .

(٣) سورة الإسراء، آية (٢٢) .

(٤) سورة يوسف، جزء من الآية (٤١) .

(٥) ينظر الآخر في القرآن الكريم، غالب حسن الشابندر صـ١٩، ط: مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد ٢٠٠٥م .

(٦) سورة الفرقان، أية: (٤) .

(٧) سورة الصافات، آية: (٨٢)، وينظر: سورة الجمعة (٣)، وسورة النساء (٩١، ١٣٣)، وسورة المائدة (٤١)، وسورة الأنعام (٦، ١٣٣) .

الأساس هي عبارة عن مجموعة من السمات التي ينسبها فرد ما إلى الآخرين، بحيث يعد المصطلح أداة للربط بين العالم الداخلي للشخص، وعالمه مع الآخرين[١] .

ومن هنا يتضح أن (الآخر) يشمل الغير بأنواعه المختلفة، فجاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على العلاقة بين الشاعر – ابن حربون الأندلسي – وعلاقته بالآخر (الحاكم، الممدوح، المهجو .. إلخ) .

ثانياً: نبذة عن المجتمع الأندلسي وعصر الموحدين:

بلاد الأندلس، تلك البقاع التي ما ذكرها عربي أو مسلم إلا فاضت عينه دموعاً ونفسه حسرات على ضياع ذلك الملك المسلوب، الذي أضاعه التحاسد والتباغض وتفرق الكلمة، وتقاتل الملوك والأمراء ... ولو توحدت كلمتهم واجتمع شملهم لكان للإسلام والمسلمين شأناً عظيماً، فقد كان الأندلس منارة للحضارة والفنون والآداب، وكان طلاب العلم من جميع أنحاء العالم يتسابقون إلى جامعة قرطبة، ينهلون من معينها الفياض، وحسب المجتمع الأندلسي أنه أنجب عظماء في كل باب من أبواب المعرفة، وخلف آيات لاتزال باقية على مر الدهور والأعوام..

وقد حدث أن صارت الأندلس دولاً متعددة، لكل دولة حاكم وإدارة وجيش وحياة أدبية وفكرية شبه مستقلة، وهنا انتهزت المماليك النصرانية فرصة النزاع بين ملوك الطوائف، وانقضوا على الأندلس حتى سقطت سنة ١٤٩٢م، وبسقوطها زال الحكم العربي عن الأندلس [٢] .

هذا، وقد كانت بداية ظهور دولة الموحدين سنة ٥١٥هـ، وكان جوهر دعوتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبح للمغرب في عهد الموحدين

---

(١) ينظر: التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، أحمد ياسين السليماني صـ١٠٦، ط: دار الزمان، سوريا، ط: الأولى ٢٠٠٦م .

(٢) يراجع: تاريخ المغرب والأندلس، د/ عصام الدين عبد الرؤوف الفقي صـ٦، ط: مكتبة نهضة مصر ١٩٨٤م .

حضارة متميزة، فقد أسس الموحدون المدارس، والمكتبات العامة، وتميز عهدهم بالحرية الفكرية، وتشجيع رجال الفكر وتقديرهم والعناية بهم، كما استفادت الحركة الأدبية في عهد الموحدين من النهضة الأدبية التي ورثوها عن المرابطين، فازدهرت في عهدهم المعارف وتوافرت لديهم عوامل ازدهار الأدب وكثر الإقبال عليه، وكان لاهتمام الخلفاء بالأدب والأدباء الأثر الواضح في نهضة الأدب العربي في هذا العصر، وكان أهم ما امتاز به الأدب هو البساطة والطابع الديني والابتعاد عن سفاسف القول، والتحرر – نسبياً – من بعض الموضوعات التي كانت شائعة في الأدب العربي، ومن ثم نجد اختفاء شعر الغزل والخمريات من الساحة الشعرية، وذلك تماشياً مع طابع الدولة الديني الذي يحرم ذلك، وكان المدح والفخر والحماسة من أهم الأغراض رواجاً في حضرة الخلفاء، وأصبح الشعراء في عهدهم أول أجهزة إعلام عرفها المغرب، فقد اجتهدوا في إرضاء الخلفاء برسمهم هالات من العظة والتقدير حولهم، فخلدوا المآثر، وحققوا ما كانت تطمح إليه نفوس القائمين على تسيير شئون الدولة، وقد أغدق الخلفاء على هؤلاء الشعراء الجوائز الكثيرة .

ويتضمن كتاب " المن بالإمامة " لابن صاحب الصلاة ديواناً من الشعر الرائع، شارك فيه كل من ابن حيوس، وأحمد بن حربون، وابن طفيل، والبلنسي وغيرهم، وأكثر هذا الشعر جاء متأثراً بالأسلوب والوزن المعروفين في المشرق على عهد أبي تمام والمتنبي .

كما سار النثر بمحازاة الشعر في التعبير عن هموم الدولة الموحدية، وسعيها إلى إبراز وجودها من خلال الرسائل التي خطها ناثروا ذلك العصر كأبي جعفر بن عطية الأديب الوزير، وغيره .

ومن ثم أصبح الأدب الموحدي انطلاقة قوية لأسس ثقافية إسلامية لها منظورها الخاص من تاريخ الفكر العربي والإسلامي [١] .

---

(١) ينظر: النهضة الفكرية والأدبية في عصر الموحدين بالمغرب، مقالة لمحمد القاضي منشورة في مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٥٥٤ سبتمبر ٢٠١١م .

المبحث الأول

التعريف بالشاعر أحمد بن حربون

إذا كان الأدب مرآة للحياة السياسية والاجتماعية، فإن أدب الحقبة التي عاش فيها ابن حربون يمثل نفوس أدبائها تمثيلاً صحيحاً، فقد اجتاحت العواصف الهوجاء نفوسهم، وتنافس الشعراء على اللحاق بالبلاطات، الأمر الذي رفع من مستوى الأدب فكراً وأسلوباً في هذا العصر الذي تلظى فيه المتنافسون، وليس البحث معنياً بتاريخ حياة هذا الشاعر، ولكن لابد من الوقوف عند أهم المحطات في حياته .

فهو أبو عمر أحمد بن عبد الله بن حربون الشلْبي، أحد شعراء الدولة المهدية وينتمي إلى طائفة المريدين، والمريدون هم طائفة دينيه خاصة تستشعر شعر التقشف والزهد [١] .

وينتمي ابن حربون إلى مدينة " شلب " التي تتميز بحسنها وبهائها وبديع بنائها وفصاحة أهلها خاصتهم وعامتهم[٢] ومن عجائبها أنه قل أن يرى من أهل شلب من لا يقول شعراً، ولا يعاني الأدب[٣] ، وكان أهلها يهتمون بالشعر ويحفلون به لدرجة أن منهم من يجعل جزءاً من أرضه وقفاً للشعراء، فيوزع عليهم غلالها، أو ما يجمع من أموالها[٤] .

---

(١) شعر أبي عمر بن حربون الشلبي، جمع وتوثيق ودراسة: د/ علي الغريب محمد الشناوي صـ٧، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، ط: الأولى ٢٠٠٤م .

(٢) ينظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس: ١ / ٣٤١، ط: دار السراج، بيروت، ط: الثانية ١٩٨٠م .

(٣) ينظر: آثار البلاد وأخبار العباد، تأليف: زكريا بن محمد بن محمود القزويني صـ٥٤١، ط: دار رضا، بيروت .

(٤) ينظر: آثار البلاد وأخبار العباد صـ ٢١٤ .

ومن شعراء شلب الذين كانوا من طبقة ابن حربون: ابن المنخل الشلبي، وابن الشواش وابن الملح، والأعلم الشنتمري وغيرهم [١] ممن لم تقتصر شهرتهم على شلب وحدها، بل احتلوا مكانة بارزة في سماء الفكر الأندلسي على العموم، ولأنهم كانوا كذلك، فإنه يكفينا ما حوته بطون الكتب من حديث عنهم، إلا أن ابن حربون لم يحظ بالعناية كغيره من مفكري وشعراء عصره، على الرغم من أنه كان ينتمي لأرض اشتهرت بهؤلاء الذين ينتمون إليها ...

وعاش ابن حربون وشعراء عصره – خاصة الأندلسيين منهم – قلقاً فكرياً واجتماعياً، الأمر الذي جعله يخضع بعض شعره لمتطلبات ورؤى الآخرين سعياً في رضاهم، " وبعد قيام دولة الموحدين، انتقل ابن حربون إلى الكتابة للأمير الموحدي أبي حفص، فكان من جملة كتابه، إلى أن مُني بالحرمان، وله شعر مدح به أمير المؤمنين يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن، الملقب بالمنصور"[٢] .

وعاش ابن حربون في خلافته التي كان حكمه فيها في الفترة ما بين ٥٨٠هـ ٥٩٥هـ وهو من أعظم خلفاء الموحدين بعد عبد المؤمن [٣] .

وإن من يمعن النظر في شعر ابن حربون سيجده مرآة تعكس صورة الشعر في العصر الموحدي،"فهو معنى قبل أن يكون لغة أو صورة أو موسيقا"[٤].

كما يعد ابن حربون واحداً من أهم الشعراء الذين انقطعوا بشعرهم لخدمة البلاط الموحدي، وكان من جملة كتاب أحمد بن قَسيّ – زعيم المريدين – وكان يقول فيه [٥]:

اهرب إلى الله وابرأ ∴ من أحمد بن قسيّ

أو فاتخذه إماماً ∴ واكفر بكل نبيّ

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري، تحقيق: إحسان عباس: ١ / ١٨٥، ط: دار صادر، بيروت ١٩٩٧م .

(٢) شعر أبي عمر ابن حربون الأندلسي، جمع وتوثيق ودراسة: د/ علي الغريب صـ٩ .

(٣) يراجع: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين الذين جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة، تحقيق: عبد الهادي التازي صـ٣٠، ط: الأولى، بيروت ١٩٦٤م

(٤) في عالم الشعر، علي بن موسى بن سعيد المغربي صـ١٢، ط: دار المعارف، مصر .

(٥) الحلة السيراء لابن الآبار، تحقيق: حسين مؤنس: ٢ / ٢٠١، ط: دار المعارف ١٩٨٥م .

واحتل ابن حربون مكانة في الديوان الموحدي، وهي مكانة دفعت بعض الباحثين لإطلاق اسم (شاعر الدولة الموحدية) عليه من بين كم كبير من شعراء الأندلس والمغرب الذين التقوا في ذلك الديوان [١] .

كما كان ابن حربون يتمتع بسمعة حسنة، ليس عند الأمراء الموحدين فحسب، بل أيضاً عند الشعراء، يقول الرصافي البلنسي مادحاً إياه [٢]:

هذي مَساعي اِبنِ حَربون وَكَيفَ بِها ∴ فَبارِها شَرَفاً يا نَجمُ أَو سارِ

فَهَل نَسائمُ مِسكٍ تَنتُرونَ مَعي ∴ أَم تَقطِفونَ مَعي أَكمامَ أَزهارِ

حَتّى لَقَد خِلتَني شَعشَعتُ بَينَهُم ∴ خَمراً فَمِن بَينِ مَخمورٍ وَخَمّارِ

وعلى الرغم من هذه السمعة فإن ابن حربون كان أشبه بالشعراء المغمورين، أولئك الذين التهمتهم عناكب النسيان، وكثيراً ما يكون في شعرهم صفحات مضيئة تشف عن جانب من جوانب الإشراق في الشعر العربي، هذا الشعر الذي فاض منذ الجاهلية، فكراً وفناً وصدقاً، فأخذ يعبر عن جوانب الحياة المختلفة في كل صورها وحالاتها وما فيها، وما زال وسيظل إلى ما شاء الله يعطي ويعبر ويوجه ويكشف، إلى غير ذلك من وجوه العطاء .

والشاعر ابن حربون أحد هؤلاء الشعراء الذين حالت الأقدار أن يظهروا للناس في المصادر الأدبية، ودون أن يسطع كوكبه كما سطع كوكب أمثاله من شعراء جيله، حيث غفل عنه الكتاب والدارسون، أو تغافلوا عنه، فأهملت دراسة شعره، ولم تأبه به المصادر، ولم تدون حياته أو تتحدث عنه، وربما ذلك بسبب اضطراب الأحوال السياسية، فتأثر الأدباء بهذه الأحوال، وأثرت عليهم في هذه الفترة بالذات، فالحياة غير مستقرة وعطاؤهم غير متواصل، ومن ثم لم يوجد في هذه الفترة من يتتبع أخبارهم بالتدوين لها .

لكن من المؤكد أن ابن حربون قد عايش الأحداث التي وقعت في بلاده، خاصة في ثورتها ضد المرابطين، ثم معايشته للواقع الجديد في بلاده بعد أن آل حكمها إلى

---

(١) ينظر: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، د/ محمد عبد الله عنان: ٢ / ٦٨٧ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط: الأولى ١٣٨٣هـ .

(٢) ديوان الرصافي البلنسي، جمع وتقديم: د/ إحسان عباس صـ٩٩، ط: دار الشروق، ط: الثانية ١٩٨٣م .

الموحدين [١]، وإن ما خلفه ابن حربون من تراث شعري يؤكد أنه كان ذا علاقة بالأمير أبي حفص (عمر بن عبد المؤمن) وإن تلك العلاقة الجيدة جعلته يخص هذا الأمير بأكثر شعره، كما أن الأمير قد استصحبه ليكون في جملة كتابه[٢]، وإن هذه المكانة التي تمتع بها ابن حربون قد جعلت له حساداً ؛ إذ شعر هؤلاء أن ذكره قد علا لدى الأمراء الموحدين خاصة أبي حفص وكذلك أبي يعقوب بعد أن أنشد له قصيدته التي منها [٣]:

الحمد لله مدني شاسع الأمل ∴ وناظم الشمل في سلك من الجذل

ومع أنه كان كذلك إلا أنه قد حرم من الكتابة فجأة مع هذا الأمير، ولكن طرده أو حرمانه من الكتابة مع الأمير قد حرك كوامنه الدفينة مما جعله يقول مخاطباً الشاعر الرصافي [٤]:

كانَ الصِّبا وَطَري إذ كُنتُ في وَطَني ∴ فَقَد فُجِعتُ بِأَوطانِي وَأَوطارِي
فَأَينَ تِلكَ الرُّبى وَالسَّاكِنونَ بِها ∴ وأَينَ فيها عَشِيَّاتِي وَأَسحارِي
مَلاعِبٌ نَثَرَت أَيدِي الرِّياحِ بِها ∴ ما شِئتَ مِن دِرهَمٍ ضَربٍ وَدينارِ
ما لِلزَّمانِ أَلا حُرٌّ يُنَهنِهُهُ ∴ يَفري أَديمي بِأَنيابٍ وَأَظفارِ
نَشَدتُهُ حَقَّ آدابي فَأَشعَرَني ∴ بِأَنَّ ذَنبِيَ آدابي وَأَشعاري[٥]

ونتيجة لهذا الواقع الذي عاشه ابن حربون، نجده قد فضل العزلة على العيش مع القهر والظلم، والفقر على الغني مع الذل والمهانة، فيقول من القصيدة نفسها:

إذا المَدائِحُ لَم يُسفِر لَها أَمَلٌ ∴ فَخَلِّني لِمَناديحي وَأَسفاري
فَقَد عَزَبتُ عَنِ الدُّنيا وَبَهجَتِها ∴ وَقُلتُ لِلنَّفسِ صَبراً أُمَّ صَبَّار
ما أَصعَبَ الفَقرَ لَكِنّي رَضيتُ بِهِ ∴ لَمّا رَأَيتُ الغِنى في جانِبِ العارِ

(١) ينظر: الحلية السيراء: ٢ / ١٩٧ .
(٢) ينظر: المن بالإمامة صـ٢٤٥ .
(٣) ينظر: السابق صـ٣٧٦ .
(٤) ينظر: زاد المسافر لابن إدريس التجيبي، تعليق: عبد القادر محداد صـ١٣١، ط: دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٠م .
(٥) شعر ابن حربون صـ١٢٠ .

ومن خلال تتبع شعره نجد أن ابن حربون قال الشعر في أغراض عـدة، منها: المدح، والوصف، والهجاء، والتشوق، والحنـين إلـى الـوطن والأهـل، والتهنئة وغيرها .

وهو شاعر وقته المعترف له بالإجازة مع العفاف والإجادة وعلو الهمـة، وتوفى سنة ٥٧٠هـ .

المبحث الثاني

تجليات صورة الآخر في شعر ابن حربون الأندلسي

يتجلى حضور الآخر في شعر ابن حربون الأندلسي، ليأخذ صوراً متعددة، نرصدها – بعون الله – من خلال ما يلي:

أولاً: الآخر الحاكم :

اتصل الشعراء بالأمراء والوزراء والأشراف أكثر من اتصالهم بالملوك والخلفاء، وذلك أنه لم يكن متيسراً للشعراء أن يدخلوا إلى أبواب الملوك قبل أن يحظوا بلقاء من هم أدنى منهم مرتبة .. وبالتالي ما إن صار ابن حربون من كتاب السيد أبي حفص حتى وجدناه يشارك الشعراء بقصائد على درجة عالية من الاتقان والجودة، لاقى ترحيباً من قبل أمراء الموحدين، وأصبح ابن حربون من أهم شعراء الموحدين .

والحديث عن الأمراء الموحدين عند ابن حربون قد تنوع وتعدد، وأخذ صوراً متعددة، فها هو ذا يرسم صورة لمجالس الأمراء الموحدين التي يرتادها العلماء وطلبة العلم فيقول مهنئاً أحد أمرائهم بالبيعة[١]:

فإن لم أكن من شاهدي بيعة الرضا ∴ فإني لإخلاص الضمير لشاهد
مجالسهم روضات نَجْدٍ يزينها ∴ من النور أجناس تؤام وفارد
مجالس لو ترقى الكواكب نحوها ∴ لقد بات تلميذاً لديهم عطارد
لقد عمرت بالعلم حتى كأنها ∴ لكثرة ذكر الله فيها مساجد

(١) شعر ابن حربون صـ٩٧ .

ومحاولة من الأمراء الموحدين في تشجيع العلم وطلابه، كانوا كثيراً ما يمنحون الهبات لهؤلاء، وهذا في الواقع قد دفع ابن حربون لرسم صورة لهم في الجود والكرم تفوق سخاء السحاب الهاطل الذي ينشر الخصب والنماء، بل إن الرافدين يتمنيان أن يمدهما الأمير بعطائه، فيقول(١):

لـه راحـة لـو أن للمـزن جودهـا ∴ لمـا سـار يبغـي الخصـب في الأرض رائـد

وطبـع تمنـى الرافـدان لـو أنـه ∴ يمـدهما منـه معـين ورافـد

كما نرى حرص ابن حربون على رسم صورة الخلافة الموحدية من خلال تصوير المعارك الحربية، تصويراً يحمل على الإعجاب والتقدير؛ حيث ترى – من خلال صورة هذه المعارك – جيش الموحدين، وقد سارت قدامه جيوش من الرعب لا حصر لها، بل لقد بالغ الشاعر ابن حربون، حين يجعل الكواكب تود لو أنها كانت بعض كتائب هذا الجيش، فيقول (٢):

جيـاد لـو اختطلـت بالظبـاء ∴ لم يـدر أيهمـا الربـرب

جيـوش تسـير وقـدامها ∴ جيـوش مـن الرعـب لا تحسـب

طلائعهـا الملأ الأكرمـون ∴ فلـم يخـل مـن ملـك مرقـب

إذا أخـذت للـورى زيهـا ∴ ولاح لـديك بهـا المـذهب

رأيـت سـبائب روض الرُّبَـا ∴ يغـص بهـا الأفـيح السبسـب

تـود الكواكـب لـو أنهـا ∴ مـن بعـض جنـدكم موكـب

كما يجسد الشاعر ابن حربون صورة الخلافة، من خلال هذا الموقف الحربي لأحد الأمراء الموحدين، الذي يرجع الانتصار إليه في هذه المعركة، فيقول(٣):

ألسـت الـذي بمقاماتـه ∴ يتيـه علـى المشـرق والمغـرب

سـليل الخلافـة صـنو الإمـام ∴ وسـيفهما المقصـل المقصـب

فَـيُهْنِ الخلافـة أن أصـبحت ∴ بصـارم سـيفكم تضـرب

---

(١) شعر ابن حربون صـ١٠٠ .
(٢) السابق صـ٨٠ .
(٣) السابق صـ٨١ .

حمـــــيم حماهـــــا فـــــأني تـــــرام ∴ ومـــــن دونهـــــا الباســـــل الأغلـــــب

ومن صور الآخر الحاكم البارزة في ديوان ابـن حربـون، واهـتم بهـا الشاعر، تصوير الخلافة الموحدية في صورة مشرقة، تجعل الناس يقدمون عليها ويؤمنون بها، وقد تم تجسيد هذه الصورة بالشعر من خـلال تصـوير الأمـراء الموحدين في صورة دينية، تبعث على الاحترام، فـنراه يضفي بعـض القداسـة على الخلافة الموحدية، حين يصورها على أنهـا نـور، أراد الله – تعـالى – أن يظهره على أيدي الحكام الموحدين، فيقول [١]:

إن الخلافـــــة لم تـــــبن أســـــرارها ∴ إلا لهـــــذا النجـــــل أو هـــــذا الأب

نـــــــور أراد الله ألا يُجتلـــــــى ∴ إلا بغـــــرة طيـــــب عـــــن طيـــــب

لـــــولاهم لغـــــدا الـــــورى في حـــــيرة ∴ ترمـــي بهـــم مـــن غيهـــب في غيهـــب

والآن قـــد بـــان الصـــباح لنـــاظر ∴ وإذا تـــــبين عاقـــــل لم يرتـــــب

وهناك للآخر الحاكم صورة رسمها ابن حربون تصور الخلافة فـي ظـل الحكام الموحدين، على أن أمرها من أمر الله، وهو أمر تخدمه صـروف الـدهر، التي تطيع الحاكم، وتمتثل له، فيقول [٢]:

لا شـــــك أن أمـــــر الله أمـــــركم ∴ مؤلـــف بـــين بـــيض الهنـــد والقلـــل

أمـــر تظـــل صـــروف الـــدهر تخدمـــه ∴ مهمـــا يشـــر نحوهـــا بـــالأمر تمتثـــل

لـــو نازعتـــه ســـيوف الهنـــد مـــا قطعـــت ∴ ولـــو عصـــته رمـــاح الخـــط لم تَطُـــلِ

ومعلوم أن الخلافة الموحدية قامت – كما ذكرنا – على أساس أنها إمامة دينية، ولم تلبث أن تحولت إلى خلافـة دنيـوية على يد عبد المؤمن ابن علـي، فيها من أبهة الملك وروح البذخ ما فيها، إلا أن الأمراء الموحدين ظلوا محتفظين بالإطار الذي أنشأه المهدي وهو الإمامة، ومن هنا واكب الشـعر هـذا التوجـه، وعبر عن تلك الروح، ولم يكن ابن حربون بدعاً من بين الشعراء الموحدين فـي هذا الجانب، إذ شاع في شعره هذا التصور، الذي خلع عليه الشاعر المزيد مـن القداسة، وهو بذلك يجاري مطالب الأمراء الموحدين، ومن الصور التي رسـمها

(١) شعر ابن حربون صـــ٧٦ .
(٢) السابق صـــ١٤٦ .

ابن حربون في هذا الشأن، تلك الصورة التي رسمها للآخر ولي العهد أبي يعقوب بن عبد المؤمن، صور فيها الخلافة الموحدية على أنها نور من عند الله، وأن ولي العهد قد تم اصطفاؤه من صفوة بعد صفوة، وهو سليل الإمام عبد المؤمن ابن علي، فيقول(١):

إليه انتهى النور المبين الذي به ∴ تبصر ضلِّيل وأذعن مارد

هو المصطفى من صفوة بعد صفوة ∴ وطيب الفروع أن تطيب المحاتد

سليل الإمام المجتبى وشبيهه ∴ فإن جل مولود فقد جل والد

ونحن إذا نظرنا في الأبيات السابقة نجد أن ابن حربون شعر كغيره من شعراء البلاط الموحدي أن للشعر أذناً صاغية (٢) ومن ثم فيها من الغلو ما فيها، إذ نجده قد ألبس هؤلاء الحكام صفات فيها مغالاة وكثير من المبالغة.

ومن هذا القبيل تلك الصورة التي صور فيها ابن حربون الآخر أمير المؤمنين أبا يعقوب بن عبد المؤمن، حين دعي بأمير المؤمنين، في صورة إنسان له سمت خاص، وقد برز هذا السمت من خلال مشهد البيعة، ذلك المشهد الذي كانت ترمقه العيون وترتد مهابة من شدة نوره اللامع، ثم يساوي الشاعر بين مبايعة الناس للحاكم الموحدي وبين التمسح بالقبلة الشريفة، فيقول (٣):

جاءتك تسحب ذيلها للموعد ∴ زهراء طالعة بسعد الأسعد

فاصدع أمير المؤمنين بدعوة ∴ لم تترك صمماً بسمع الجلمد

لله مشهد بيعة بويعتها ∴ فالدين والدنيا بذاك المشهد

في حيث ترتد العيون مهابة ∴ عن ساطع من نوره المتوقد

لا تثبت الأبصار فيك لملتقى ∴ لألاء أنوار الهدى والسؤدد

وكأنهم إذ بايعوك تمسحوا ∴ بالقبلة البيضاء ذات الأسود

ومن صور ابن حربون في هذا الشأن، تلك الصورة التي تصور الحاكم الموحدي على أنه ولي من أولياء الله تعالى – حيث يقول (٤):

---

(١) شعر ابن حربون صـ١٠١ .
(٢) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين صـ٧٩ .
(٣) شعر ابن حربون صـ٩٠ .
(٤) شعر ابن حربون صـ١٥٠ .

فأنـــت إمـــام الخلـــق طـــراً ∴ متـــى مـــا زال لا زال الإمـــام

ولـــي الله أنجحـــت المســـاعي ∴ بســـعدكم وقرطســـت الســـهام

وصورة دينية أخرى للحكام الموحدين من خلال التأكيد على تثبيتهم لأركان الدين فيقول ابن حربون[١]:

بعثـتم لهـذا الخلـق أمنـاً ورحمـة ∴ علـى حـين لم يلقـوا علـى الأرض راحمـاً

وشـيدتم أركـان ديـن محمـد ∴ علـى حـين لم تهـدم مـن الكفـر هادمـاً

وتلك صورة للآخر الحاكم يهنئ فيه ابن حربون الخليفة الموحدي على بيعته بالخلافة، وقد جاءت في إطار ديني، حيث جعل بيعة هذا الحاكم يقودها من الأمر السماوي قائد فيقول [٢]:

فجـاءك برهـان مـن الله صـادع ∴ يقـر بـه مـن لم يـزل وهـو جاحـد

هـي البيعـة الغـراء جـاءت يقودهـا ∴ إليـك مـن الأمـر السـماوي قائـد

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن حربون كان صاحب حظوة لدى الحكام الموحدين، الأمر الذي جعل له حساداً، إذ شعر هؤلاء أن ذكره قد علا وشاد لدى الأمراء الموحدين، خاصة أبي حفص [٣]، ومع تلك الحظوة حُرم ابن حربون فجأة من الكتابة مع ذلك الأمير، وقد يكون للحساد دور في ذلك، وهنا تتراءى صورة الظلم والضيم التي تعرض لها الشاعر ابن حربون من الآخر الحاكم، على الرغم من أنه كان يعيش في كنفه وتحت حمايته، إلا أنه لا يلقي بالاً إلى مشاكل الشاعر، ولا يشعر بمعاناته، والنتيجة كانت أن فقد الشاعر كرامته بعدما ضيق عليه هذا الحاكم، ومن ثم وجدناه قد فضل العزلة على العيش مع القهر والظلم – كما مر بنا – في قوله [٤]:

نَشَـدتُهُ حَـقَّ آدابـي فَأَشـعَرَني ∴ بِـأَنَّ ذَنبِـيَ آدابـي وَأَشـعارِي

إِذا المَـدائِحُ لَـم يُسـفِر لَهـا أَمَـلٌ ∴ فَخَلِّـني لِمَنـاديحي وَأَسـفارِي

---

(١) السابق صـ١٦١ .

(٢) السابق صـ٩٩ .

(٣) ينظر: المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة صـ٣٦٧ .

(٤) شعر ابن حربون صـ١٢٠ .

وهنا يبدو الحاكم كأكبر ممارس لسلطة الغياب والحضور، ويكون بالتالي هو المدان[١] وإن هذه الأوضاع كفيلة بمضاعفة إحساس الشاعر بالهزيمة أمـــام وطأة الآخر الحاكم .

(١) ينظر: الوطن وإشكالية المتغير الحضاري، عمر بوقرورة صـــ١١٥، نشر: مجلـــة العلـــوم الاجتماعية والإنسانية ١٩٩٦م .

ثانياً: الآخر الممدوح :

فن المديح فن قديم في شعرنا العربي، لا يخلو عصر من عصور الأدب إلا ويضرب فيه بسهم موفور، واعتبره بعض النقاد من أفضل المقاييس التي تقاس بها حال الأمة والشاعر والأدب في وقت واحد، يقول العقاد: "والذي نعتقده أن شعر المديح من أفضل المقاييس لقياس حال الامة والشاعر والأدب في وقت واحد، فيخطئ من يظن أن الأمم المترقية لا تمدح أو لا تقبل المدح من شعرائها، إذ المديح جائز في كل أمة ومن كل شاعر،فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ القصيد في مدح عظيم يعجب به، ويؤمن بمناقبه، ولا ضير على الأدب، أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التي يعرفها الغربيون أو الشرقيون"(١).

وإذا تناولنا هذا الفن عند ابن حربون عند تصويره للآخر، وجدناه كأي شاعر قال في هذا الفن، إلا أن قصيدة المدح عنده تنتمي إلى المدح السياسي الذي يتغنى فيه الشاعر بأمجاد الدولة، وقد لوحظ أن قصائد ابن حربون جاءت متمشية مع الظروف التي أعانت على نتاج نصه الشعري ؛ حيث ارتبطت معظم قصائد المدح بالتهنئة، وذلك لأنها جاءت في الأساس، لتوثق انتصار الآخر الممدوح في معركة حربية، أو قمع حركات التمرد والفتن الداخلية، التي واجهت دولة الموحدين، ومن أمثلة ذلك قصيدته التى هنأ فيها السيد الأعلى أبا حفص على انتصاره في معركة الجبل،التي غزا فيها المنافقين المرتدين حيث قال(٢):

أسيدنا أبا حفص هناكم ∴ ويهن الدين فتحكم الهَنِيُّ
ولا زالت صوارمك المواضي ∴ وفيها من دماء عداك رى
إذا الهيجا بباكم ادلهمت ∴ أنار بنور بشركم الندى
تغاير فيكم هذي الليالي ∴ فيحسد فيكم الصبح العشى

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للعقاد، ١٧، ١٨، ط: نهضة مصر، من دون تاريخ.
(٢) شعر ابن حربون صـ١٦٥.

إذا مـــــا رام وصـــــفكم بليـــــغ ∴ أجـــر لســـانه حصـــر وعـــى
وكيـــف يطـــول بـــاع الوصـــف فيمـــا ∴ يقصـــر عـــن مـــداه الأعـــوجي
علـــى ذاكـــم فـــدونكم مـــديحاً ∴ يـــرف بروضـــه الزهـــر الجـــني

يقدم ابن حربون في هذا المقطع صورة للآخر الممدوح الذي وجد فيه نموذجاً لكل معاني الإنسانية التي يعجز عن وصفها البلغاء والوصافون، فالشاعر هنا جعل من الآخر "وسيلة لتفضيل الأخلاق العربية، وتصوير آمال المجتمع العربي في الفضائل الذاتية"(١) .

ثم يتجه الشاعر ابن حربون إلى ممدوحه ليؤكد عظيم الدور الذي يضطلع به هذا الآخر فالصورة التي يرسمها له ابن حربون تمتد عبر أبيات عدة يحاول من خلالها أن يلح على دور الممدوح في إرساء دعائم الدولة، وتقرير النصر على الأعداء فيقول (٢):

بيمـــــنكم أُنجـــــح المطلـــــب ∴ وأعطـــــى مقادتـــــه المصـــــعب
وأشـــــرقت الأرض عـــــن نـــــوركم ∴ فلـــــم يبـــــق في أفـــــق غيهـــــب
وكيـــــف يفـــــوتكم هـــــارب ؟ ∴ والله مطلـــــوبكم يطلـــــب
ألم تـــــر قيصـــــر في ملكـــــه ∴ إلى الســـــلم مـــــن بأســـــكم يهـــــرب
ولمـــــا تنلـــــه ســـــوى عضـــــة ∴ لهـــــا بـــــين أكتافـــــه مخلـــــب
لقـــــد عممـــــت الـــــورى آلاؤكـــــم ∴ فكـــــل جديـــــد بكـــــم مخصـــــب
تحـــــير في كنهـــــك الألمعـــــي ∴ وقصـــــر في مـــــدحك المســـــهب
فـــــلا زلـــــت يرجـــــوك مـــــن يرتجـــــي ∴ ويرهـــــب بأســـــك مـــــن يرهـــــب

ثم نرى الشاعر ابن حربون يعبر صراحة عن شجاعة الآخر الممدوح فيقول(٣):

ولا غـــرو أن صـــال ليـــث الشـــرى ∴ فـــــراغ مخافتـــــه الثعلـــــب

---

(١) الشخصية والطبيعة في الشعر القديم، د/ عبد الفتاح نافع، مجلة المورد، مجلد ٤٦ عدد ٢ سنة ٢٠٠٩م.
(٢) شعر ابن حربون صـ٧٧ .
(٣) شعر ابن حربون صـ٨٠ .

فالآخر الممدوح ليث الشرى في بأسه وشجاعته،والعدو ثعلب في مراوغته، فهو هنا ينتزع تشبيهاته من بيئته الطبيعية،مما يجعل معانيه سهلة واضحة عذبة.

ثم يواصل ابن حربون مدحه للآخر رغبة من في استرضائه، إذ يسبغ عليه كل الصفات التي تميزه عن غيره فيقول [١]:

لكم بعد حمد الله تهدى المحامد ∴ وفي وصف عليـاكم تصاغ القلائد

بعدل أبي يعقوب يأمن خائف ∴ ويجبر منهاض ويصلح فاسد

فتى تنجلي الظلماء عن نور وجهه ∴ فمهما بدا لم يفقد البدر فاقد

وسايل به تخبرك عن عزماته ∴ سوائل من ماء الحديد رواكد

وما المجد إلا من هبات أكفكم ∴ فمن نال حظاً منكم فهو ماجد

ثم نرى الشاعر ينتقل إلى الحديث عن الآخر الممدوح من خلال الإطراء والثناء عليه والإشادة به، ولا يكاد يحتفظ لذاته إلا بالافتخار بالقدرة المتعاظمة على صوغ الأقاويل الجيدة التي تكشف عن عظيم الثناء على الآخر الممدوح [٢] فيقول [٣]:

ودونكموها من ثنائي فريدة ∴ عليها من النظم البديع فرائد

تلاقى عليها من لساني شاكر ∴ ومن نعم المولى المعظم شاهد

وفي خلدي إن كان في العمر مهلة ∴ عجائب يفنى الدهر وهي خوالد

وهنا يُلحظ أن قصيدة المدح عن ابن حربون كانت من ذلك النوع الذي يصفه حازم القرطاجني بالقصائد البسيطة ؛ حيث إن أحسن ما تبدأ به وصف ما يكون فيه الحال مما له إلى غرض القول انتساب شديد، كافتتاح مدح القادم من سفر بتهنئته بالقدوم والتيمن له بذلك، وكافتتاح مدح من ظفر، على أعدائه بوصف ذلك،وبتهنئته به،ثم يتبع ذلك بذكر فضائل الممدوح ونشر محامده[٤].

---

(١) السابق صـ١٠١ .

(٢) ينظر: جماليات الأنا في شعر الأعشى الكبير، د/ حسن الواد صـ١٠٩، ط: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط: الأولى ٢٠٠١م .

(٣) شعر ابن حربون صـ١٠٦ .

(٤) ينظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب الخوجه صـ٣٠٥، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الثالثة ١٩٨٦م .

كما يلحظ – أيضاً – أن مدح ابن حربون للآخر إنما كان توثيقاً للانتصارات الحربية داخلياً وخارجياً، بصورة لم يكن يطغي فيها صوت المعركة على صورة الآخر الممدوح، ومن ثم اتكأت قصيدة المدح عنده على الواقع التاريخي ؛ لتتهيأ المادة الشعرية مع المادة التاريخية إلى توثيق حدث ما، أو الإضافة إليه، أو المبالغة في طرحه، أو تفخيم أسلوب عرضه، ولكن المادة تظل – في أساسها – مطروحة بين الشاعر والمؤرخ (١) .

ومهما كانت درجة اهتمام القصيدة عند ابن حربون بتوثيق الأحداث التاريخية، إلا أنها كانت تركز على وصف الآخر الممدوح، ومن ثم تحولت قصيدة المدح إلى الاهتمام بإبراز أوصاف الممدوح، وذكر فضائله، ونشر محامده، وقد تركز نشر المحامد في إبراز تفوق الآخر الممدوح على أعدائه من خلال الحرب التي جاءت في كل مرة، تلهج بآلاء هذا الآخر، مثل قوله (٢):

ولم تشغل بذاك الهول بالا ∴ كأن رماح عاصيكم عصى
تبت وقد تخاذل كل شهم ∴ فما عرف الجبان ولا الكمى
فما سمعوا بأربط منك جأشاً ∴ وقد فنيت من العلق الفنى
تنادوا يوم معضلة بناد ∴ فلبى منك طب أحوذى
وألقت بركها أو حاولته ∴ فجلاها الهمام الهبرزي
رموا بشَرَنْبَت الكفين أدنى ∴ مخالبه السنان الصلبى
إذا لمح الفريسة لم يهجه ∴ عن أخذها إلاّ شقى

فالآخر الممدوح في أبيات ابن حربون يتصف بالمحامد التي ظهرت من خلال إشارات ذات دلالات إنسانية مهمة، كما يشير إلى تلك الفضائل وهذه المحامد التي يتجلى بها الآخر الممدوح في قوله (٣):

كسوب الحمد متلاف وهوب ∴ كمثل البحر يرجى أو يهاب
كأن الناس من خطأ وأنتم ∴ أدام الله أمركم صواب

(١) ينظر: الشاعر مؤرخاً، عبد الله التطاوي صـ١٢، ط: دار غريب، القاهرة ١٩٩٥م .
(٢) شعر ابن حربون صـ١٦٧ .
(٣) شعر ابن حربون صـ٧٢ .

وأنـــــتم في مشـــــاهدكم كهـــــول ∴ وأنـــــتم في موالـــــدكم شـــــباب
فمـــــن يرجـــــو بوصـــــفكم قيامـــــاً ∴ وفضـــــلكم تضـــــمنه الكتـــــاب
فمـــــا يســـــطيع غـــــايتكم حســـــب ∴ ولا يحـــــوى فضـــــائلكم حســـــاب

وقد يأتي الوصف ضمن قصيدة المدح، في إطار الحديث عن مآثر الآخر الممدوح، كوصف ابن حربون لمدينة مراكش، وقد جاء هذا الوصف شاهداً على واحد من الآثار الحضارية للخلافة الموحدية، حيث جسد وصف ابن حربون لجمال مدينة مراكش مظاهر الرخاء والسعادة في هذه الدولة، فإذا بهذه المدينة، آية من الفن والجمال، وذلك لأن يد الآخر الممدوح هي التي زينتها وسقتها الكوثر من جود كفه فتحولت إلى واحة وارفة الظلال، فاقت في جمالها واحداً من أجمل متنزهات الدنيا، وهو شعب بوان، حيث يوجد هذا الشعب عند شيراز، وهو كثير الشجر والمياه، وقد ذكره المتنبي في شعره حيث قال(١):

مَغـــاني الشَـــعبِ طيبـــاً في المَغـــاني ∴ بِمَنزِلَـــةِ الرَبيـــعِ مِـــنَ الزَمـــانِ

بل إن هذه المدينة الموحدية تفوق في جمالها قصر المتوكل العباسي، إن هذه المدينة اليوسفية الجميلة لم تكن سوى أرض جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، قبل أن تنسجها يد الخليفة فتحيلها إلى بساتين خضراء، فيقول ابن حربون(٢):

وأصـــخ لـــذكر اليوســـفية إنهـــا ∴ منعـــت مغـــاني الشـــعب مـــن أن تـــذكرا
دبجتهـــا مـــن حســـن خلقـــك جنـــة ∴ وســـقيتها مـــن جـــود كفـــك كـــوثرا
فـــإذا ســـقيط الظـــل رف بزهرهـــا ∴ لقطـــت بهـــا كـــف النســـيم الجـــوهرا
لـــو أنهـــا ممـــا تقـــدم عصـــره ∴ لقلـــي الوليـــد الجعفـــري وجعفـــرا
كانـــت كظهـــر الـــترس مريـــاً صحصـــحا ∴ فنســـجتها للحـــين روضـــاً أخضـــرا
وتخيـــل الخطـــى حســـن ثمارهـــا ∴ فغـــدا بـــرأس دعـــيهم قـــد أثمـــرا
جـــاءت قـــريحتكم بكـــل عجيبـــة ∴ أعيـــت علـــى الألبـــاب أن تتصـــورا

(١) ديوان المتنبي شرح البرقوقي: ٤ / ٢٥٤، ط: دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦م .
(٢) شعر ابن حربون صـــ١٢٧ .

ونخلص من استعراض الأمثلة السابقة لقصائد المدح في شعر ابن حربون إلى نتيجة وهي أن الآخر الممدوح صورة لنفس الشاعر التي تجسد في أفعال الممدوح كل أحلامه وأمانيه .

ثالثاً: الآخر المهجو :

فن الهجاء من فنون الشعر العربي التي تعد سوقاً رائجة منذ القدم، والتي طرقها بعض الشعراء منذ فجر الأدب العربي[١]، يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء، سواء في ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد، أو الجماعة، أو المذاهب[٢] .

كما يتصل فن الهجاء بموقف الشاعر من مجتمعه، وما يتضمن من قيم، فالشاعر يرسم لخصومه الأنموذج القبيح، فيسلبهم كل الصفات الحسنة، ويلبسهم كل المساوئ ومظاهر القبح، فهو لسان القبيلة، يذب عنها، ويرد سهام خصومها، فالهجاء هو الدرع الواقي له ولقبيلته، ولمن يرتبط معهم بحلف أو جوار، وهو من أهم الأسلحة التي يسددها للخصوم إذا ما حاولوا إلحاق الأذى به وبقومه فرداً مندمجاً في كيان المجتمع [٣] .

وإذا تناولنا هذا الفن عند ابن حربون وجدناه كأي شاعر آخر قال في هذا الفن، إلا أن قصيدة الهجاء عنده تنتمي إلى الهجاء السياسي الذي يتصل بوصف أعداء الدولة الموحدية، وهزائمهم أمام الأمراء الموحدين، ومن ذلك قوله[٤]:

اليوم صم صَدى الغاوي بأرضكم ∴ والكلب ينبح ما لم يزأر الأسد

وقوله [٥]:

ولا غرو أن صال ليث الشرى ∴ فراغ مخافته الثعلب

---

(١) الهجاء: د/ محمد سامي الدهان صـ٦، ط: دار المعارف، ط: الثالثة – من دون تاريخ .
(٢) ينظر: الهجاء في الأدب الأندلسي، د/ فوزي سعد عيسى، صـ١٤، ط: دار المعارف، القاهرة .
(٣) ينظر: القبيلة في الشعر العربي قبل الإسلام، أحمد إسماعيل النعيمي، رسالة ماجستير صـ٢٦٤، آداب المستنصرية ١٩٨٥م .
(٤) شعر ابن حربون صـ١٠٨ .
(٥) السابق صـ٧٩ .

وقوله [١]:

فجـاءوا كمـا جـاءت أسـود بواسـل ∴ وولـوا كمـا ولـت نعـام شـوارد

فيظهر أن ابن حربون من خلال هذا النوع من الهجاء الذي يحمل كل معاني الاستخفاف بالآخر المهجو، يريد العبث بمهجوه عبثاً لاذعاً محاولاً إثارة الضحك والاستهزاء، فيصوره في أقبح صورة (الكلب، والثعلب، والنعام) فتصويره للآخر هنا يغلب عليه التهكم والسخرية والاستهزاء، ومن ثم نراه يحرص على تصوير خصمه في صورة كاريكاتورية مضحكة [٢] .

ومن أعداء الدولة الموحدية: ابن مردنيش، الذي أزرى به ابن حربون بعد هزيمته، وصور افتضاح أمره بين الناس وشماتتهم به، وسخريتهم منه فى قوله [٣]:

تجلـل منهـا المردنيشـي خزيـة ∴ تنـاغى بهـا بـين البيـوت الولائـد

فالشاعر هنا حقق هدفه الذي رمى إليه من خلال الصورة التي رسمها للآخر المهجو (ابن مردنيش)، وقد كساه الخزي والعار، وهو خزي تتكلم به الولائد في المهد .

كما ذم ابن حربون من تمردوا على سلطان الدولة من البربر إذ يقول[٤]:

ومـاذا تؤمـل هـذى الرعـاع ∴ وأنـي لهـا عـنكم مهـرب

سـتبرأ منهـا إليـك الشـعاب ∴ ويسـلمها البـازل الأصـهب

لقـد ركبـوا مركـب الجـاهليين ∴ والجهـل مـن شـر مـا يركـب

وهنا صور ابن حربون الآخر الخارج على الدولة الموحدية، في صورة الرعاع، والجهال، وأن شعاب الجبال ستبرأ منهم، وأن جيوش الموحدين ستنتصر عليهم .

وعن الآخرين الأعداء قال ابن حربون محذراً إياهم [١]:

---

(١) شعر ابن حربون صـ١٠٥ .

(٢) ينظر: الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، د/ محمد النويهي: ٢ / ٨٧١، ط: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، من دون تاريخ .

(٣) شعر ابن حربون صـ١٠٤ .

(٤) السابق صـ٧٨ .

فـــالآن قـــل لـــذوي الإلحـــاد شـــأنكم ∴ فمـــا لكـــم دون هـــذا الأمـــر ملتحـــد

وبشـــر العجـــم أن العـــرب قـــد دلفـــت ∴ علـــى العـــراب وأن الملتقـــى صـــدد

ففي هذه الأبيات يحاول ابن حربون النيل من الآخر المهجو مظهراً أفعاله السيئة المتمثلة في الإلحاد ونحوها، ولعل هذا الفن من الهجاء، الذي يقوم علـــى التقاط العيوب الخلقية والمعنوية، ويحتاج إلى دقة الملاحظة، والقدرة على الخلق والتصوير، لا يمكن لأي شاعر أن يبرع فيه، ما لم يمتلك الموهبة والقدرة علـــى تطويع اللغة، وقد توفر ذلك عند الشاعر ابن حربون .

ومن خلال عرض الأبيات التي وردت فيها معاني الهجاء، يمكننا الوقوف على حقيقة الآخر المهجو ؛ لأن الهجاء " هو الفن الذي يقود حركـــة المجتمـــع، وهو الذي يكشف زيف الناس، ويقوّم الانحراف وتتبع الفساد " [٢] .

---

(١) شعر ابن حربون صـــ١١١ .

(٢) الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية، د/ عبـــاس بيـــومي عجـــلان، صـــــ١٤٠، ط: دار المعارف بمصر، ط: الأولى ١٩٨٢م .

المبحث الثالث

أثر الآخر في تكوين البناء الفنى لشعر ابن حربون الأندلسي

معلوم أن المنهاج الفني هو المنهاج الذي يتلمس الخصائص الفنية عند الشعراء والأدباء، فيصنفهم ويضعهم في أطر مذاهب فنية بناء على سمات غالبة تميزهم، ويشترك فيها عامة الأدباء أو الشعراء الذين ينضوون تحت هذا المذهب، ولا يمكن الحكم على قيمة أي عمل أدبي من حيث الشكل أو المضمون إلا إذا نظرنا إلى العمل الأدبي بوصفه كلاً، فبمقدار ما يتحقق من الانسجام بين مستويات العمل الأدبي، وبين العناصر التي تتألف منها كل مستوى يكون كمال العمل الأدبي، ومن ثم نجد أن البناء الفني يشمل الألفاظ والأساليب، والمعاني والأخيلة، والموسيقى بأنواعها المختلفة، والنظم سواء أقام على الحقيقة أم على الخيال، والصور الجزئية التي تسهم في بناء الصورة الكلية، وهذه هي منابع الصورة ومصادرها، ومنها تتولد عناصرها المكونة من حجم الصورة، وما يتصل بانكماشها أو تمددها، وشكلها وهو ذلك الإطار الخارجي الذي يضم جزئياتها، وموقعها، وهو المعنى المجرد أو الواقع المحسوس، أو الحالة النفسية، ومن عناصرها: اللون، الحركة، الطعم، الرائحة، فهذه العناصر وتلك المنابع لا غنى للصورة الفنية عنهما [١] .

وقد كان لطبيعة الموضوعات الشعرية التي عالجها ابن حربون، أثر واضح في تميز شعره بخصائص فنية واضحة، سواء من حيث المعجم الشعري، أو المعاني والأفكار، أو الخيال والتصوير، أو الموسيقى، وبعون الله وتوفيقه سأتناول هذه الخصائص بشيء من التفصيل فيما سيأتي:

---

(١) ينظر: البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، د/ علي علي صبح صـ٢١ – ٢٨، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث، ط: الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .

أولاً: المعجم الشعري:

تتفاوت مقدرة الشعراء التعبيرية وفق ما يمتلكه كل منهم من معجم شعري حافل بألفاظ اللغة، فالشاعر المجيد هو الذي يتسلح برصيد هائل من تلك الألفاظ ليتسنى له الانتقاء والاختيار والتفضيل بين الكلمات ذات الإيحاءات المتسقة مع تجربته (١) .

ومما لا شك فيه أن اختيار اللفظة المناسبة يلعب دوراً مهماً في العمل الأدبي، فالكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان فوجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب في الدلالة على المراد وأوضح في الإبانة عن المطلوب (٢) .

وإن من ينظر في شعر ابن حربون الأندلسي على هذا النحو يرى أنه سار على نهج واضح، إذ ترك العنان لألفاظه لتعبر عن رؤاه في مثل هذه المرحلة من الحياة الفكرية، ومن ثم نجد معجمه الشعري قد تنوع ليشمل:

أ- ألفاظ وعبارات ذات دلالة إسلامية: مثل الحمد لله، المسلم، الجهاد، النبي، برهان من الله، العرش، الذكر، نعم المولى، الحج، العمرة، الكتاب، النبي، الرسول، الحلال، الحرام، التقوى، المصحف، المؤمنون، لها طرائق في هامتهم قدد، بجيوش جاست خلال الديار، فوجدنا من ريح يوسف، الحق حقك ماله من دافع ... إلخ .

ب- ألفاظ وعبارات ذات دلالة مكانية: مثل شلب، أندلس، المغرب، نجد، الصحراء، البحر، المساجد، شنيل، مجمع البحرين، جبل ثهلان، اليرموك، جبل الفتح، أرض العدوتين، صنهاجة، تهامة، الكعبة ... إلخ .

---

(١) ينظر: التجربة الشعرية عند المتلقي، د/ عبد اللاه محروس صـ٢٣، مطبعة الأمانة، الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٩م .

(٢) ينظر: دراسات في النص الأدبي في العصر الحديث، د/ محمد عارف، د/ حسين محمد علي صـ٢٨، ط: دار الوفاء .

ج-ألفاظ ذات دلالة على بعض الشخصيات البارزة: وهذه الشخوص قد تكون لأنبياء ورسل، فقد ورد ذكر اسم النبي محمد (ﷺ) وأسماء الأنبياء: نوح وموسى وعيسى ويعقوب ويوسف (عليهم السلام) .

وقد تكون اسماء ملائكة، كجبريل وميكائيل (عليهما السلام) .

وقد تكون لشخصيات تاريخية مثل الفاروق عمر بن الخطاب، والمهدي، وكسرى، وقيصر، وقد تكون هذه الأسماء للأعداء: كالمردنيشى، وابن الرنك، أو للأمراء الموحدين كأبي حفص وأخواته .

والناظر في ألفاظ ابن حربون هذه، يجد أنه تأثر كثيراً بالألفاظ الإسلامية في كثير من شعره، ومن ثم أصبحت القيم والمعايير الإسلامية بكل معطياتها تشكل جانباً في وعيه الشعري، وخضع معجمه لهذا الوعي، فأصبح يستمد منها جانباً، ولست في مقام الاستقصاء للألفاظ الإسلامية التي تأثر بها ابن حربون، بل كان ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر، على أن هذا الشاعر لم يعتمد على المعجم الإسلامي بنقل لفظة أو تعبير نقلاً أعمى، بل إنه يستعمل روح وذوق المعجم الإسلامي بوعي وفهم .

كما أن المتأمل في معجمه يجده قد تنوع " متأثراً بعوامل خارجية، اجتماعية، وثقافية، وسياسية، إلى جانب المؤثرات الشخصية [١] .

(١) الشعر في شعر المرابطين والموحدين بالأندلس، تأليف: ابن سعيد المغربي، علي بن موسى صـ٣٤٥ ط: دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠م .

ثانياً: المعاني والأفكار:

المعاني هي المضمون، ومحتوى خبايا النفوس، وهذا المضمون أو المحتوى هو في غالب الأمر " المادة الخام التي يستخدمها الأديب، أو الشاعر، والتي يشكلها الفنان في الصورة التي يريدها " (١) .

وقد ذكر ابن طباطبا العلوي شيئاً عن علاقة المعنى بلفظه، فقال: " إن الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه، كما قال بعض الحكماء: للكلام جسد وروح، فجسده النطق وروحه معناه " (٢) .

والمتأمل في شعر ابن حربون الذي مر بنا، يجد معانيه قد سارت في ضوء العاني التقليدية المعروفة، سائراً في ذلك على نهج القدامى من الشعراء، ومطبقاً الذوق العام، حيث كان يعبر عن معانيه بوضوح، الأمر الذي جعل البحث عن الصورة الغريبة تقل عنده، مستغنياً عن ذلك بسعة المعلومة أحياناً، وبالميل إلى التحليل والتعليل، والمناقشة في أحايين أخرى، مثلما نجده عند غيره من الشعراء الأندلسيين، أيام زهو الثقافة الأندلسية (٣).

فابن حربون حاول أن يجعل شعره مفهوماً، وكأنه قد استلهم قول أبي عبد الله وزير المهدي عندما سئل عن الشعر فقال: " خير الشعر ما فهمته العامة ورضيت به الخاصة " (٤) .

كما أنه لم يتتبع نهج شاعر معين من الشعراء المشهورين في بلاده أو في الشرق، بل مضى على النهج العام دون الخروج عنه، وقد زاد عليهم ما حوته

---

(١) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د/ محمد زكي العشماوي صـ٢٢٠، ط: دار الشروق، ط: الأولى ١٩٩٤م .

(٢) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، د/ محمد زغلول سلام صـ٢٥، ط: منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٠م .

(٣) ينظر: مقدمة ديوان يحيى بن حكم الغزالي، د/ محمد رضوان الداية، ط: دار ابن قتيبة، دمشق، ط: الأولى ١٤٠٢هـ .

(٤) العمدة لابن رشيق: ١ / ١٢٣، ط: دار الجيل، بيروت، ط : الخامسة ١٩٨٥م .

بعض معاني أبياته، من مبالغات تصل إلى مرحلة الغلو، خاصة شعر المديح الذي تأثر فيه بالتوجه العام الذي صبغ قصيدة المديح الموحدية بصبغة خاصة[١] .

ومن ذلك قوله يصف ممدوحيه بصفات قد تقربهم من صور الأنبياء (عليهم السلام) [٢]:

فجاءك برهان من الله صادع ∴ يقربه من لم يزل وهو جاحد

هي البيعة الغراء جاءت يقودها ∴ إليك من الأمر السماوي قائد

وقوله [٣]:

إليه انتهى النور المبين الذي به ∴ تبصر ضليل وأذعن مارد

هو المصطفى من صفوة بعد صفوة ∴ وطيب الفرع أن تطيب المحاتد

ومن المعاني التي طرقها ابن حربون في شعره، وكانت سائدة في القصيدة الموحدية [٤] استلهام قصص الأنبياء عليهم السلام، فنجده يستلهم لقاء موسى بالخضر عليهما السلام .. في بعض المواقف، مثل موقف اللقاء بين أخوين من الأمراء الموحدين على جبل الفتح فيقول [٥]:

لاقى الكليم على الشاطئ بـه خضراً ∴ وفيه لاقى أخاه السيد السيد

صنوان ما اجتمعا في أرض أندلس ∴ إلا ليحيى فيها دينه الأحد

ومن معانيه أيضاً: الشكوى من الدهر كقوله [٦]:

ما لِلزَّمانِ أَلا حُرٌّ يُنَهنِهُهُ ∴ يَفرِي أَديمي بِأَنيابٍ وَأَظفارِ

نَشَدتُهُ حَقَّ آدابي فَأَشعَرَني ∴ بِأَنَّ ذَنبِيَ آدابي وَأَشعاري

وشكواه هنا كانت نتيجة حتمية لواقع قلق كان قد عاشه، وهذا في الواقع قد دفعه لإعلان اعتزاله عن الدنيا وبهجتها، فنراه يقول من القصيدة نفسها:

فَقَد عَزَبتُ عَنِ الدُّنيا وَبَهجَتِها ∴ وَقُلتُ لِلنَّفسِ صَبراً أُمَّ صَبَّارِ

---

(١) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس صـ١٠٩ .
(٢) شعر ابن حربون صـ٩٩ .
(٣) السابق صـ١٠٠ .
(٤) ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس صـ١١ .
(٥) شعر ابن حربون صـ١٠٩ .
(٦) السابق صـ١٢٠ .

مـــا أَصـــعَبَ الفَقـــرَ لَكِنّـــي رَضـــيتُ بِـــهِ ∴ لَمّـــا رَأَيـــتُ الغِنـــى في جانِـــبِ العـــارِ

والمتأمل في شعر ابن حربون يجده مرآة عاكسة لما كان عليه الشعر الموحدي، وهذا في المواقع، قد جعل المعاني التي تدور في فلك الشعر الموحدي، تظهر في شعر ابن حربون وإن لم تكن كلها، على أنه ينبغي أن نعرف أن أفكاره ومعانيه قد تنوعت وتعددت، لدرجة أننا نرى تعددها في قصيدة واحدة، جمع فيها بين الآخر والذات كقوله – مهنئاً الآخر الحاكم الموحدي بعد انتصاره على عدوه[1] :

قـد حصـص الحـق لا ريـب ولا فنـد ∴ هـذي الفتـوح الـتي كـانوا بهـا وعـدوا

خـذوا بحظكـم يـا أهـل أنـدلس ∴ منهـا فمـا لغـاو بعـدها رشـد

وفي القصيدة ذاتها تحدث عن الآخر الممدوح فقال عنه:

هـذا سـليل إمـام الحـق بيـنكم ∴ لا المـال مـدخر عـنكم ولا الولـد

فقـد ظفـرتم بغيـاض مواهبـه ∴ تحصـى الحصـى قبـل أن يحصـى لهـا عـدد

كما تحدث عن الآخرين الأعداء، فقال في القصيدة نفسها محذراً إياهم:

فـالآن قـل لـذوي الإلحـاد شـأنكم ∴ فمـا لكـم دون هـذا الأمـر ملتحـد

وبشـر العجـم إن العـرب قـد دلفـت ∴ علـى العـراب وأن الملتقـى صـدد

ثم قال عن ذاته الشاعرة:

ودونكـم مـن قـواف في مـدحكم حـبراً ∴ تبلـى الليـالي وهـن الغصـة الجـدد

صـدرن مـني بحكـم الـود عـن كبـد ∴ لـولا رجـاؤكم قـد فتهـا الكمـد

وقد استطاع ابن حربون أن يمد معانيه وأفكاره بثقافته الدينية والتاريخية واللغوية ... والتي كان لها أبلغ الأثر في غنى الأفكار التي تحمل تلك المعاني، فضلاً عن تجاربه الخاصة ومشاهداته التي أمدته بوفرة المعاني وتعددها، وهي على بساطتها تلك "أفعل بالنفوس من كل توليد خارق"[2].

---

(١) شعر ابن حربون صـ١٠٧ .

(٢) الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، د/ محمد رجب البيومي صـ٢٢٥، ط ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

ثالثاً: الخيال والتصوير:

إن أهم ما يميز الشعر عن غيره من الأجناس الأدبية اعتماده على الخيال في نقل التجارب والإفصاح عن المشاعر، وللخيال أهميته الواضحة في العمل الشعري، فإذا خلا الشعر من الخيال ضاقت دائرته، وكان أقرب إلى العواطف الفردية الجزئية التي لا تأثير لها، وعن الخيال تتولد الصورة التي هي نتاجه الظاهر، وثمرته الدانية، وللصورة الشعرية أهمية لا تنكر، إذ لها فضل كبير في تمكين المعنى في النفس، لما فيها من توضيح المعنى وإبرازه في صورة جلية(١).

وعند التأمل نجد أن شعر ابن حربون قد حفل بالكثير من الصور الشعرية التي عبرت عن مشاعره وأحاسيسه تجاه الحياة والناس، وقد تنوعت الصورة لديه إلى:

أ- صورة كلية: وهي التي تتآلف من صور جزئية مترابطة ترسم مشهداً عاماً، ومنها تلك الصورة التي رسمها ابن حربون للموحدين يصور فيها سطوتهم وعلو كعبهم، وقد برزت تلك السطوة من خلال هذا الخيال الذي رسم الشاعر من خلاله صورة الآخر الحاكم الموحدي، وكأنه الأسد الهصور، والعدو الآخر المهجو في صورة الثعلب الذي هرب من المواجهة، خوفاً منه، فيقول (٢):

تركتم ديارهم بلقعاً ∴ فتندب من جاءها يندب

ولا غرو أن صال ليث الشرى ∴ فراغ مخافته الثعلب

رميت بها الهضبات العلى ∴ فخافك في أوجه الكوكب

فمزقتم شملهم في البلاد ∴ ففلهم جمل أجرب

فهو هنا يلح على التعبير عن التحكم والسيطرة، من خلال تصوير الأعداء في صورة الشمل الذي تبعثر، ولم يبق مه إلا جمل أجرب .

---

(١) ينظر: الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن صـ١٤٩، ط: العلوم بالقاهرة ١٩٦٤م .
وينظر: البناء الفني للصورة الأدبية، د/ علي علي صبح صـ٢٨، ط: المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة، ط: الثانية ١٩٩٦م .

(٢) شعر ابن حربون صـ٧٩ .

وهذه صورة أخرى رسمها ابن حربون للجيش الموحدي يصور فيها سعيه للقضاء على الفتن الداخلية، فيقول [١]:

وعوج كأمثال السرامين شزب ∴ قريب لديها النازح المتباعد
حسان لو أن الحسن نيل بمطلب ∴ لأصبح تستمليه منها الخرائد
إذا ألجمت لم يعصم العصم معقل ∴ ولم يحترم في البيد منها الأوابد
فما سومت من قبلهن بوارق ∴ ولا ملكت هوج الرياح مقاود
إذا شطبة منها بدت تحت فارس ∴ بدا أسد من فوق فتخاء قاعد
تراها كما ولي من الذعر خاضب ∴ وأقبل مذعور من الأدم شارد
لقد وردت شنيل منها مقانب ∴ كما انحدرت من رأس رضوى الجلامد
تجلل منها المردنيشي خزية ∴ تناغى بها بين البيوت الولائد
وولي بها شوهاء قد فضحتهم ∴ كما افتضحت بعد الأماني غامد
قريتم سباع الأرض منها فأصبحت ∴ كأن رباها للعوافي موائد
لقد أيقنوا أن الحتوف مصادر ∴ غداة رأوا أن الشفار الموارد
فجاءوا كما جاءت أسود بواسل ∴ وولوا كما ولت نعام شوارد

فالشاعر في أبياته تلك يصور الآخر الممدوح في صورة المحارب المنتصر الذي امتلك أسباب انتصاره، بامتلاكه أدوات حربية تعينه على ذلك، من أهمها في هذه الصورة الخيل الأصيلة التي شبهها في عدوها بالذئاب الضامرة، التي بوسعها أن تنال عدوها مهما كان بعيداً، ولعل في قول ابن حربون: (قريب لديها النازح المتباعد) إشارة إلى الآخر المهجو وهو العدو الذي ظن أنه بمنأى عن يد الآخر الحاكم وقد جعل الشاعر الفرس تبدو من تحت الفارس الموحدي كالنسر الذي امتطاه الفارس الذي بدا للعيان أسداً:

إذا شطبة منها بدت تحت فارس ∴ بدا أسد من فوق فتخاء قاعد

كما اعتنى الشاعر بهذه الفرس برسم حركتها في المعركة، حيث جسد كرها وفرها من خلال صوت الظليم والظباء في قوله:

---

(١) شعر ابن حربون صـ١٠٣ .

تراهـا كمـا ولى مـن الـذعر خاضـب ∴ وأقبـل مـذعور مـن الإدم شـارد

كما ظهر في أبياته اعتناءه برسم صورة رائعة لجماعات الخيل والفرسان، حين شبه قدومها بانحدار الصخور الصلبة من أعلى الجبل، وصور استحواذ الجيش الموحدي على المعركة من خلال استضافتهم لسباع الأرض، ليتناولوا جثث القتلى التي تحولت منها ربا الأرض إلى موائد لهذه السباع وذلك في قوله:

قـريتم سباع الأرض منهـا فأصبحت ∴ كـأن رباهـا للعـوافي موائـد

وعبرت تلك اللوحة عن سيطرة الموحدين على أعدائهم من خلال الصورة التشبيهية، حين صورت مجيئهم بمجيء الأسود البواسل، وانصرافهم بانصراف النعام الشوارد في قوله:

جـاءوا كمـا جـاءت أسـود بواسـل ∴ وولـوا كمـا ولـت نعـام شـوارد

ب- صورة جزئية: ومن أمثلتها قوله [١]:

أطاعـك دهـرك في العـالين ∴ فيرضـى متـى شـئت أو يغضـب

وهي صورة تصور الآخر الممدوح وقد صفا له زمانه وأصبح رهن مشيئته، وهي صورة فيها كثير من المبالغة؛ لأن الدهر لا يرضى متى شاء الممدوح .

ومنها قوله [٢]:

فالـدين جـزلان قـد عـزت جوانبـه ∴ والكفـر خزيـان مـا ينفعـك يضـطهد

فالصورة التي رسمها ابن حربون هنا صورة للدين وقد شبهه فيها بإنسان فرح قد امتلأت جوانبه بالسعادة والنشوة، في حين بدا الكفر في ثوب الصغار والمهانة والذلة .

---

(١) شعر ابن حربون صـ٧٧ .
(٢) السابق صـ١١١ .

كما يرسم ابن حربون صورة للزمان من خلال الاستعارة التشخيصية ويبرز من خلالها الزمان في صورة الحيوان المفترس، الذي ينهش فريسته بأظفاره وأنيابه فيقول [١]:

مـا لِلزَّمـانِ أَلا حُـرٌّ يُنَهنِهُـهُ ∴ يَفـرِي أَديمـي بِأَنيـابٍ وَأَظفـارِ

ومن أمثلة الصورة الكنائية في شعر ابن حربون قوله [٢]:

وأبـيض فيـاض اليـدين مبـارك ∴ على وجهـه مـن نـور ذى العـرش واقـد

وهي صورة كنى بها الشاعر عن الأمير الموحدي، وهي صورة تضفي قداسة على الممدوح، ومنها قوله [٣]:

وإليكهـا تبغـي رضـاك ذخـيرة ∴ سـنداً ألـوذ بـه طـوال السـند

لم تنـتهج سـنن المـديح وإنمـا ∴ قامـت بفـرض فـلا عـلاك مؤكـد

أخـذت بـأطراف الثنـاء ولم تطـق ∴ إحصـاء أوصـاف الجميـع المفـرد

والأبيات جاءت كناية عن جهد الشاعر في التعبير عن مشاعره تجاه الممدوح بالشعر من خلال القصيدة .

ومن خلال ما سبق نلاحظ أن صور ابن حربون دارت في فلك الموروث ولم تأت بجديد، وقد أسهمت في تلاحم أجزاء البناء الشعري للنص، كما كانت عوناً على جلاء المعاني التي هدف إليها الشاعر .

---

(١) شعر ابن حربون صـ ١٢٠ .
(٢) السابق صـ ٩٩ .
(٣) السابق صـ ٩٦ .

رابعاً: الأوزان والقوافي:

هي من أبرز علامات الشعر، إذ هي التي تميزه عن الكلام المعتاد عن غيره من الفنون الأدبية، وإن من أوزان الشعر وبحوره ما تألفه الطباع، وتستريح إليه الآذان والأذواق، لذلك أحبه الشعراء الأوائل، وأكثروا من استخدامه، ونسجوا معظم شعرهم عليه، وقد أسفر الاستقراء عن أن البحور التي كانت موفورة الحظ من الذيوع والاستعمال في الشعر العربي هي: الطويل، والكامل، والوافر، والبسيط، والخفيف، وتأتي بعدها في الشيوع أوزان أخرى هي الرمل، والمتقارب والسريع، وقد تذبذبت قلة وكثرة على ألسنة الشعراء، ومن ذلك نرى أن العرب كانوا يميلون إلى البحور الكثيرة المقاطع ويؤثرونها [١] .

والمتأمل في شعر ابن حربون، يلحظ غلبة البحور المتينة الوفيرة المقاطع في عدد أبياتها كالكامل والطويل والبسيط، يليها الوافر، ثم يأتي بعد ذلك المتقارب، فالخفيف، وأقلها الرمل، وقد يلجأ إلى مخلع البسيط [٢] .

أما بالنسبة إلى القافية في شعر ابن حربون، فقد نوع الشاعر في قوافيه، حيث استعمل حروف: الباء، والحاء، والدال، والراء، والميم، والنون، والياء، كما نوع ابن حربون في حركة الروي، حيث يلحظ أنه كان يميل إلى الضمة كحركة روى لقوافيه، يليها الكسرة، ثم الفتحة .

---

(١) ينظر: موسيقا الشعر العربى، د / إبراهيم أنيس، ط: القاهرة ١٩٥٢م .
(٢) ينظر: الشعر فى عهد المرابطين والموحدين بالأندلس صـ ٣٤٥ .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد .

فإن هذه الدراسة دارت رحاها حول شاعر من شعراء العصر الأندلسي، لم يأخذ حظه من البحث والدراسة بما يتفق مع نتاجه وفنه، وهو أحمد بن حربون الأندلسي – شاعر الدولة الموحدية – ولهذا فإن البحث حاول أن يظهر شيئاً يشير إلى إبداع هذا الشاعر، ويستجلى بعضاً من مواقفه تجاه الآخرين .

وقد توصل البحث إلى نتائج كان أهمها ما يلي: –

- حاول البحث أن يكشف النقاب عن إشكالية مفهوم الآخر، ويزيل عنه بعض الغموض الذي اكتنفه، حتى يكون المتلقي قادراً على معرفة أبعاد الدراسة .
- ألمح البحث إلى أن الأدب الموحدي كان انطلاقة قوية لأسس ثقافية إسلامية لها منظورها الخاص من تاريخ الفكر العربي والإسلامي .
- أبرز البحث المؤثرات العامة في حياة الشاعر أحمد بن حربون الأندلسي من حيث نشأته ومكانته الأدبية وغير ذلك من العوامل المؤثرة في حياته وشعره وملامح شخصيته .
- تعددت صورة الآخر في شعر ابن حربون، ما بين: الآخر الحاكم، والآخر الممدوح، والآخر المهجو، في محاولة منه لنقل مشاعره تجاه الآخرين عبر أبيات شعرية .
- اهتم ابن حربون في شعره بتصوير الخلافة الموحدية في صورة مشرقة، تجعل الناس يقدمون عليها ويؤمنون بها من خلال تصوير الحاكم الموحدي في صورة دينية تبعث على الاحترام .

- تحولت قصيدة المدح عند ابن حربون إلى الاهتمام بإبراز أوصاف الآخر الممدوح، وذكر فضائله، ونشر محامده من خلال إشارات ذات دلالات إنسانية مهمة .
- جاءت قصيدة الهجاء عند ابن حربون منتمية إلى الهجاء السياسي، الذي يعد لوناً من الشعر الوثائقي، حيث عبرت كل قصيدة فيه عن حدث تاريخي بعينه.
- حاول ابن خربون من خلال صوره، وما تحويه من مشاهد نقل تجربته الشعرية، وهي تجربة اتحدت في نقلها الألفاظ والمعاني والصور والأوزان والقوافي، ليمثل من خلال هذه التجربة مرحلة تاريخية وفكرية مرت بها بلاده (الأندلس) .

هذا، وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

د. سيد أحمد عبد الرحمن
مدرس الأدب والنقد في
كلية اللغة العربية بجرجا

المصادر والمراجع

** القرآن الكريم (جل من أنزله) .

- آثار البلاد وأخبار العباد، تأليف: زكريا بن محمد بن محمود القزويني، ط: دار رضا، بيروت .
- الآخر حسب سارتر، عبدالله عازار، مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد ٨٦ مارس ١٩٩١م.
- الآخر في القرآن الكريم، غالب حسن الشابندر، ط: مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد ٢٠٠٥م .
- الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، د/ محمد رجب البيومي، ط ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .
- الأصول الفنية للأدب عبد الحميد حسن، ط: العلوم بالقاهرة ١٩٦٤م .
- البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، د/ علي علي صبح، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة، ط: الثانية ١٤١٦هـ ١٩٩٦م .
- تاريخ المغرب والأندلس، د/ عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، ط: مكتبة نهضة مصر ١٩٨٤م .
- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين الذين جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين لابن صاحب الصلاة، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط: الأولى، بيروت ١٩٦٤م
- التجربة الشعرية عند المتلقي، د/ عبد اللاه محروس، مطبعة الأمانة، الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٩م .
- التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، أحمد ياسين السليماني، ط: دار الزمان، سوريا، ط: الأولى ٢٠٠٦م .
- جماليات الأنا في شعر الأعشى الكبير، د/ حسن الواد، ط: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط: الأولى ٢٠٠١م .
- الحلة السيراء لابن الآبار، تحقيق: حسين مؤنس، ط: دار المعارف ١٩٨٥م .

- الحلم والرمز والأسطورة: د/ شاكر عبد الحميد، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، بيروت، لبنان ١٩٩٨م.
- دراسات في النص الأدبي في العصر الحديث، د/ محمد عارف، د/ حسين محمد علي، ط: دار الوفاء .
- ديوان الرصافي البلنسي، جمع وتقديم: د/ إحسان عباس، ط: دار الشروق، ط: الثانية ١٩٨٣م .
- ديوان المتنبي شرح البرقوقي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٦م.
- ديوان أمرئ القيس، ط: دار صادر، بيروت .
- الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار السراج، بيروت، ط: الثانية ١٩٨٠م .
- زاد المسافر لابن إدريس التجيبي، تعليق: عبد القادر محداد، ط: دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٠م .
- الشاعر مؤرخاً، عبد الله التطاوي، ط: دار غريب، القاهرة ١٩٩٥م .
- الشخصية والطبيعة في الشعر القديم، د/ عبد الفتاح نافع، مجلة المورد، مجلد ٤٦ عدد ٢ سنة ٢٠٠٩م.
- شعر أبي عمر بن حربون الأندلسي، جمع وتوثيق ودراسة: د/ علي الغريب محمد الشناوي، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، ط: الأولى ٢٠٠٤م.
- الشعر الجاهلي، منهج في دراسته وتقويمه، د/ محمد النويهي، ط: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، من دون تاريخ .
- شعر أبي عمر بن حربون الشلبي، جمع وتوثيق ودراسة: د/علي الغريب محمد الشناوي، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، ط: الأولى ٢٠٠٤م .
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، تأليف: ابن سعيد المغربي، علي بن موسى، ط: دار الرشيد، بغداد ١٩٨٠م .
- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للعقاد، ط: نهضة مصر، من دون تاريخ.
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، د/ محمد عبدالله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط: الأولى ١٣٨٣هـ .

- العمدة لابن رشيق، ط: دار الجيل، بيروت، ط : الخامسة ١٩٨٥م .
- عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، د/ محمد زغلول سلام، ط: منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٠م .
- في عالم الشعر، علي بن موسى بن سعيد المغربي، ط: دار المعارف، مصر .
- القبيلة في الشعر العربي قبل الإسلام، أحمد إسماعيل النعيمي، رسالة ماجستير، آداب المستنصرية ١٩٨٥م .
- قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، د/ محمد زكي العشماوي، ط: دار الشروق، ط: الأولى ١٩٩٤م .
- لسان العرب لابن المنظور، ط: دار الجيل، بيروت، لبنان ١٩٨٨م .
- المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، عبد المنعم الحفني، ط: مكتبة مدبولي، القاهرة، ط: الثالثة .
- المعجم الوسيط: إبراهيم أنيس وآخرون، ط: دار صادر، بيروت، ط: الأولى .
- مقدمة ديوان يحيى بن حكم الغزالي، د/ محمد رضوان الداية، ط: دار ابن قتيبة، دمشق، ط: الأولى ١٤٠٢هـ .
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب الخوجه، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط: الثالثة ١٩٨٦م .
- موسيقا الشعر العربى، د / إبراهيم أنيس، ط: القاهرة ١٩٥٢م .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري، تحقيق: إحسان عباس، ط: دار صادر، بيروت ١٩٩٧م .
- النهضة الفكرية والأدبية في عصر الموحدين بالمغرب، مقالة لمحمد القاضي منشورة في مجلة الوعي الإسلامي، عدد٥٥٤ سبتمبر٢٠١١م.
- الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية، د/ عباس بيومي عجلان، ط: دار المعارف بمصر، ط: الأولى ١٩٨٢م .
- الهجاء في الأدب الأندلسي، د/ فوزي سعد عيسى، ط: دار المعارف، القاهرة .

- الهجاء: د/ محمد سامي الدهان، ط: دار المعارف، ط: الثالثة، من دون تاريخ .
- الوطن وإشكالية المتغير الحضاري، عمر بوقرورة، نشر: مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية ١٩٩٦م .